

لِسنة التداول والنصر والتمكين في قصص نبينا الأمين:

قصة "الأبرص والأقرع والأعمى" أنموذجاً.

ELAW OF REPLACEMENT, AND VICTORY, AND
EMPOWERMENT IN THE PROPHET STORIES: STORIE OF “THE
LEPER, AND THE PERCUSSION, AND THE BLIND” AS A MODEL.

Rachid Berrichou	رشيد بريشو (*)
Faculty of Arts and Humanities Sciences - University of ibn tofail Kenitra - Maroc.	كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن طفيل القنيطرة - المغرب.
The Laboratory of Didactic languages, translation and culture.	مختبر ديداكتيك اللغات والترجمة والثقافة.
berrichou1988@gmail.com	

تاريخ النشر:	تاريخ القبول:	تاريخ الإرسال:
2022/03/17	2021/07/03	2021/05/10

الملخص:

تسعى هذه الدراسة إلى تجلية سنة التداول والنصر والتمكين في قصة (الأبرص والأقرع والأعمى)، وذلك بتتبع شخصياتها واستكناه الدلالات والمعاني المتعلقة بها. لقد الله عز وجل خلق هذا الكون بشكل محكم له نظام، خاضع لثوابت كونية يجري سلطانها على كل المخلوقات، ويعتبر الإنسان المخلوق الوحيد

(*) المؤلف المرسل.

الممتلك لقدرة الفهم والتحليل لأن الله حباه بملكة العقل، مما يجعل هذه السنن واضحة لديه لا ينكرها إلا جاهل.

وتعد القصة النبوية من بين الوسائل التي اعتمدها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أجل تبليغ رسالته وتعليم أمته وتربيتهم على القيم الإسلامية. ومن أجل إبراز هذه السنن الكونية -في القصة موضوع الدرس- كان لزاما علينا التوصل بالمنهج الوصفي التحليلي باعتباره الأنسب لمثل هذه الدراسات، كما اتبعنا خطة محكمة بحيث تم تقسيم الدراسة إلى شقين، شق نظري توقفنا فيه عند تحديد المفاهيم، والآخر تطبيقي خصصناه لدراسة سنن التداول والنصر والتمكين في قصة الأبرص والأقرع والأعمى.

الكلمات المفتاحية: سنة، التداول، النصر، التمكين، القصة النبوية.

Abstract:

This study seeks to show substitution, victory, and empowerment system in the prophetic stories (stories of the leper, the percussion, and the blind); by tracing its personalities and extracting the connotations and suffering related to it. God created this universe tightly and has order; and all creatures are subject the force of this law.

the prophetic storie is a way to educate and build a human being; and we adopted a solid plan for to show these divine laws; and we also adopted the descriptive analytical approach; and we divided the research into two parts thzoretical department and the applied department.

Key Words: law, substitution, victory, empowerment, Prophet stories.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، أصدق الخلق حديثا، وأفصح العرب لسانا، آتاه الله جوامع الكلم، عليه أفضل الصلاة والتسليم، أما بعد:

لقد خلق الله تعالى هذا الكون الواسع المترامي الأطراف وفق نظام محكم خاضع لقوانين ونواميس مطردة، لها صفة العموم والشمولية، والثبات والدوام، والاستمرار، فهي منظومة كلية ناظمة لحياة البشرية، وللوجود بأكمله في منشئه وسيرورته ومصيره. فكل المخلوقات على مسافة واحدة من هذه السنن، إذ لا تحابي أحدا من الخلق، ولا تختلف ولا تتخلف. فالأخذ بالأسباب -مثلا- سنة كونية سارية على كل العباد والخلائق، ويعتبر العمل بها من صميم تحقيق العبودية لله تعالى، فلا يمكن تخيل نزول مطر بغير سحب، ولا حياة لأرض بغير ماء. قال تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ [سورة الحج، الآية: 5].

إن الإيمان بالله تعالى والاعتقاد والتوكل عليه لا ينافي أبدا الاستفادة من سننه تعالى، والتي جعلها في هذا الكون نموسا مطردا. ونجد في سيرة نبينا ما يشفي الغليل في هذا الباب، فهي حبلى بالمواقف التي تبين مدى اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم للسنن الكونية، فهجرته كانت على أساس تخطيط دقيق ومحكم، حيث اتخذ جميع الأسباب التي دلتها له ربه تعالى كي تنجح هجرته إلى المدينة المنورة، فسنة الأخذ بالأسباب تجلت في مواقف عدة: كان أولاها بعث مصعب بن عمير سفيراً إلى المدينة لكي يهيء الظروف لاستقباله صلى الله عليه وسلم، وثانها الاستعانة بالكتمان حتى لا يعلم المشركون بهجرته صلى الله عليه وسلم، وثالثها اتخاذ أبو بكر الصديق رفيقا له في الطريق، وأمره عليا بالمبيت في فراشه.. كلها أسباب توسل بها النبي الأمين في هجرته، دون أن ينسى -إلى جانب الأخذ بالأسباب- التوكل على خالق الأسباب.

لقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم بعد بعثته على بناء الإنسان، وذلك بالاعتماد على عدة وسائل منها القصص النبوي، فالقصة إحدى النوافذ الدلالية الهادفة، فهي عبرة وعظة لكل مسلم أخلص لعقيدته السمحة التي جاءت للعالمين تبياناً للحق وموعظة لصاحب كل لب وعقل، "يجب أن يتحول ذكر القصص للمسلمين، من قبل الكاتبين والمتحدثين والواعظين، من كونه هدفاً أساسياً، إلى جعله وسيلة ضرورية، فلا نهدف إلى مجرد (إمتاع أسماع) السامعين، وتقديم روايات وأقاصيص يطربون منها ويتلذذون بها، ويشبعون بها حاستهم الفنية، بل نهدف إلى أن نجعلهم، يتفكرون فيما يسمعون، فيستخرجون منه دروساً في الإيمان والدعوة والجهاد والثبات، إن ذكر القصص وسيلة لا بد منها من وسائل الدعوة، وأسلوب ضروري لإحقاق الحق ومحاربة الباطل، إن السامعين يفرقون بين رجلين من المتحدثين: بين رجل يعرض أفكاره ودعوته عليهم من خلال القصص، وبين رجل يعرض لأفكار نظرية مجردة مثالية جافة، إنهم يتفاعلون مع الأول منها، ويتأثرون به وينقادون إليه"¹.

ونظراً للأهمية الكبرى التي تتمتع بها القصة النبوية عند المسلمين، ارتأينا أن نُسهِم بهذه الورقة من أجل تعميق البحث واستخراج المعاني والدلالات التي تزخر بها.

مشكلة الدراسة:

اتضح مما سبق أن القصص النبوي يهدف بالأساس إلى التربية على القيم النبيلة وأخذ العبر والدروس، والملاحظ أن أغلب الدراسات التي تناولت قصص النبي صلى الله عليه وسلم اتسمت بنوع من الانطباعية، حيث تطفو ذاتية الباحث، من خلال تفسير مشاعره تجاه القصة، أو تقديم انطباعاته حولها، وعليه، فقد أصبحت الحاجة ماسة اليوم إلى دراسة القصص النبوي بمنهج يتيح للباحث أدوات تحليل أكثر نجاعة، مما يفضي إلى نتائج تتسم بالدقة والموضوعية.

في ضوء ذلك تحددت إشكالية الدراسة في محاولة الإجابة على السؤال الرئيس التالي:

ماهي تجليات سنة التداول والنصر والتمكين في قصة 'الأبرص والأقرع والأعمى'؟

ويتفرع عن هذا السؤال التساؤلات الفرعية التالية:

- ما مفهوم القصة النبوية؟
- ما المقصود بالسنن الكونية؟
- كيف تمظهرت سنة التداول والنصر والتمكين في قصة الأبرص والأقرع والأعمى؟ وما الدلالات والدروس المستفادة منها؟

فرضيات الدراسة:

انطلاقاً من التساؤلات السابقة يمكن صياغة فرضيات الدراسة كما يلي:

- القصص النبوي وسيلة من وسائل الدعوة ونشر القيم من خلال إبراز السنن الكونية.
- قصة 'الأبرص والأقرع والأعمى' تمظهرت فيها سنة التداول والنصر والتمكين بشكل جلي.

أهمية البحث:

تكمن أهمية الدراسة في محاولة تجلية سنة التداول والنصر والتمكين في قصة 'الأبرص والأقرع والأعمى'، كما أنها تسعى إلى إبراز المعاني والدلالات التي يمكن استخلاصها من القصة.

1- القصة النبوية وسيلة للتربية على القيم الإسلامية:

1.1- مفهوم القصة النبوية:

جاء في لسان العرب أن القصة هي: " الخبر وهو القصص. وقصّ علي خبره يقُصّه قصا وقصصا، أو رده. والقَصَص: الخبر المقصوص، والقِصص، بكسر القاف، جمع القصة التي تُكتب"².

أما صاحب القاموس المحيط فيرى أن كلمة "قص" تعني: "قَصَّ الأثر قصا: تتبعه، وقص الخبر: أَعْلَمَه. والقاص: من يأتي بالقصة. وتقصص كلامه: حَفِظَه"³، فالقصة هنا بمعنى تتبع الأثر والإتيان بالقصة على وجهها. وأن القص والخبر مترادفان، والقَصص هي الخبر المقصوص (المحكى)، والقاص هو الذي يأتي بالقصة على وجهها كأنه يتتبع معانها.

فإذا ما تأملنا في الدلالات اللغوية للقصة نجد أن كل التعاريف المقدمة لا تكاد تفصل بينها وبين الخبر، ولعل هذا راجع بالأساس إلى طبيعة تلك البيئة المعجمية القديمة المهمة بشأن المفردات وبيان مرادفاتهما على نحو عام، حيث لم تكلف نفسها البحث الدقيق في الفروق الحاصلة بين المفردات.

أما من الناحية الاصطلاحية فتعرف القصة بأنها: "فن أدبي قديم صاحب الأمم من عهد البداوة وإلى عهد ذروة الحضارة، ومكانة -هذا الفن- ممتازة بين الفنون الأدبية لمرونته، واتساعه للأغراض المختلفة، ولجمال أسلوبه، وخفته على النفوس، وقد بلغ به القرآن ذروة السمو والكمال"⁴. وقد تعددت أنواعه، فمنه الحقيقي كالرحلات، والخيالي، كقصة كليلة ودمنة، ومنه الأدبي القصير كالمقامات، والحماسي الطويل كقصة عنترة...

ويعرف عمر سليمان القصة بأنها: "فن حكاية الحوادث والأعمال بأسلوب لغوي ينتهي إلى غرض مقصود"⁵.

والقصة، في المدلول الشامل للكلمة، "لون من ألوان الأدب القصصي، الذي يروي الأخبار، على أنواعها، ويعرض الأحداث، وينقل المآثر، ويسوق الحكايا وال نوادر، وينسج الأساطير والخرافات، طلبا للمتعة والفائدة"⁶.

وتأتي القصة النبوية بعد القصص القرآني في المكانة والتبليغ عن الأحداث والمواقف التي عرفتها الأزمان الغابرة، فالرسول صلى الله عليه وسلم تحدث بلسان صدق، فهو الذي قال فيه تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ [سورة النجم، الآية: 4-3]، وقص هذا القصص عن السابقين، ليكون ذلك عبرة للاحقين بوحي من علام الغيوب سبحانه وتعالى، وفيه من مواطن الروعة والجمال والإبداع وأسرار البيان ما فيه، وهو ضرب من ضروب الأدب يصغي إليه الإنسان، فتترسخ عبره وأمثاله في النفس لحلاوته وعذوبته، قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الأبواب﴾ [سورة يوسف، الآية: 111]. لذلك فإن منزلة الحديث الشريف، تأتي بعد منزلة كلام الله تعالى الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ [سورة فصلت، الآية: 42]. ويعد القصص النبوي من المنابر التي ارتكز عليها نبينا صلى الله عليه وسلم لتبليغ رسالته، ولنشر دعوته، وتثبيت النفوس على دين التوحيد، وترسيخ القيم الأخلاقية في المجتمع.

ويعد القصص النبوي أيضاً شكلاً من أشكال الحوار الذي استخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم لنشر دعوته، كما أنه "أحسن القصص من كلام البشر، يشترك مع القصص القرآني في كثير من السمات"⁷ منها: أنه حق لا باطل فيه، وأنه يتسم بلايجاز بلا خلل، ويتميز بوضوح الهدف، كما أنه يتخذ أشكالاً متعددة، فمنه المثل القصصي، وقصص الصالحين من الأمم السابقة، وقصص من الواقع المعيش...

2- السنن الإلهية قوانين سارية على كل المخلوقات:

1.2- مفهوم السنن الإلهية:

جاء في "لسان العرب" لابن منظور أن سنة الله: "أحكامه وأمره ونهيه، وسننها الله للناس، أي بينها، وسن الله سنة: أي بين طريقاً قويمًا، والسنة السيرة، حسنة كانت أو قبيحة"⁸.

والسنن هي المنهج والطريقة، فقد جاء في القاموس المحيط مايلي: "يقال: استقام فلان على سنن واحد ويقال: امض على (سننك) أي: على وجهك، وتنح عن (سنن) الطريق و(السنة): السيرة"⁹.

وقال الإمام الرازي في تفسيره: "والسنة: الطريقة المستقيمة والمثال المتبع"¹⁰، وقال صاحب تفسير المنار: "السنن جمع سنة، وهي الطريقة المعبدة والسيرة المتبعة أو المثال المتبع"¹¹.

تكاد أغلب أقوال أهل اللغة تكون متشابهة في تحديد مفهوم السنة، إذ اعتبروها الطريقة والسيرة، وقد تكرر في الحديث النبوي الشريف ذكر السنة، وقُصِدَ بها اتباع الطريقة المحمودة المستقيمة، ومنه جاء وصفنا لمن يتبع سنة وطريقة نبينا الكريم بـ(أهل السنة).

وسنة الله تعالى هي: "الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة"¹². فالإنسان خاضع لهذه السنن الإلهية منذ نشأته، "والكائنات الحية -بما فيها الإنسان- تخضع لهذا القانون، فخلق الإنسان والأطوار التي يمر بها في بطن أمه يخضع في ذلك كله إلى هذا القانون العام الثابت"¹³. ولهذا القانون العام وجهان:

- الوجه الأول: وهو المتعلق بالجانب المادي المحسوس، وتخضع له جميع الكائنات بما فيها الإنسان، كما يعلمه كل البشر، إذ لا يختلف في وجوده العقلاء، "وهذا الوجه من القانون العام وما يخضع له مما ذكرناه من الأمور المادية للكائنات، أقول هذا الوجه من هذا القانون لا يختلف في وجوده أهل العلم بهذه الأمور المادية، ولا يختلفون في خضوع ما ذكرناه له"¹⁴.

- الوجه الثاني: وهو الذي يتعلق بالجانب الاجتماعي، أي السنن "التي جعلها الله تعالى تحكم حياة البشر ويسير الله عز وجلّ أمورهم وأحوالهم بها، كسنن السعادة والشقاء، وسنن السراء والضراء، والهدى والضلال، والأسباب ومسبباتها، ويتسم هذا النوع من السنن بالثبات والاطراد، والعموم والشمول"¹⁵، والإيمان بأن كل العلاقات والأمور الاجتماعية في الدنيا يترتب عليها جزاء في الآخرة، وهذا القانون العام يخضع له البشر باعتبارهم أفراداً وجماعات، ويُقصد بخضوعهم له: "خضوع تصرفاتهم وسلوكهم في الحياة وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج كالرفاهية أو الضيق في

العيش، والسعادة والشقاء.. ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا وما يصيهم في الآخرة من عذاب أو نعيم وفقا لأحكام هذا القانون بوجهه الثاني¹⁶.

وتتميز السنن الكونية بخصائص، منها: الثبات والاطراد والعموم:

هي ثابتة لقوله تعالى: ﴿سَنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [سورة الأحزاب، الآية: 62]. وقال تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةَ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [سورة فاطر، الآية: 43]. فهي ثابتة في كل زمان ومكان، لا تختلف ولا تتخلف رغم تغير الظروف والأزمان.

وهي مطردة، والدليل على ذلك ما وصلنا من قصص الأمم السابقة وما حل بهم، ولولا اطرادها ما كان لنا أن نأخذ الدروس والعبر ممن سبقنا. "ويبدل على اطرادها: أن الله قص علينا قصص الأمم السابقة وما حل بها من العقوبات لتنتعظ ونعتبر، ولا نفعل فعلهم، فيصيبنا ما أصابها، ولولا اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها، كما قال تعالى معقبا على ما حل بيهود بني النضير من الذلة والجلاء عن المدينة: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [سورة الحشر، الآية: 2]، أي: احذروا أن تفعلوا فعلهم، فيحل بكم ما حل بهم"¹⁷.

ويتجلى مظهر العموم فيها، في قوله تعالى: ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [سورة القمر، الآية: 43]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمْنِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مِنْ يَعْمَلُ سُوءً يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآية: 123]، أي أن كل المخلوقات على نفس المسافة منها، فهي لا تحابي أحدا، فالكل خاضع لها وإن لم يؤمن بوجودها.

وعليه، يمكن القول بأن للسنن الإلهية وجهان: وجه كوني متعلق بكل المخلوقات، ووجه اجتماعي مرتبط بحياة الإنسان، "وتشترك السنن الكونية والاجتماعية في كونهما يتسمان بالثبات والاطراد، ولكنهما يختلفان -بالاستقراء- في كون السنن الكونية واضحة بينة مضبوطة، يسهل التعرف عليها، بحيث إذا عُرِفَت أمكن الحكم على نتائجها وميقات هذه النتائج، فالماء مثلا يتجمد إذا بلغت برودته درجة معينة، ويغلي عند درجة معينة، ومن ذلك معرفة كسوف الشمس والقمر، ومواسم الأمطار وغيرها، وكذلك كون النار تحرق، والجاذبية

تجذب الأشياء من الأعلى إلى الأسفل، وهكذا¹⁸. "أما السنن الاجتماعية فتختلف عن الكونية في كون أسبابها دقيقة ومتشعبة وطويلة الأجل، فقد يصعب على كثير من الناس الإحاطة بها تفصيلاً، إلا بعد التأمل والفحص الدقيق في أسبابها ونتائجها، كما تختلف عنها أيضاً في كونها -وبالاستقراء- لم نعلم أن الله عزّ وجلّ قد خرقها لأحد من خلقه، بل جعلها الله عزّ وجلّ عامة للجميع"¹⁹.

1.1.2. سنة التداول:

سنة التداول من السنن الكونية الاجتماعية والتاريخية، وينطبق عليها ما قلناه عن السنن الإلهية من اطراد وثبات وعموم، وهناك من يطلق عليها اسم سنة الاستبدال أو التغيير الاجتماعي والحضاري، والتي تعني التعاقب والتناوب الحضاري، أي صعود الحضارات وسقوطها، وميلاد الأمم ووفاتها، ونشوء الدول وزوالها، وتداول القيادة وتناقلها، قال تعالى: ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ [سورة آل عمران، الآية: 140].

وسنة التداول تكون بالانقلاب من حال ووضع إلى حال ووضع آخر، أي من الوضع السيء إلى الوضع الحسن أو العكس، يقول الله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [سورة الرعد، الآية: 11]، فهذه الآية القرآنية بمثابة قاعد تؤطر سنة التداول، فالتغيير إلى الأفضل يكون بالبداية بتغيير دواخل الأنفس من عقائد ومفاهيم وأفكار وممارسات، "وهكذا بين القرآن الكريم أثر الإنسان في التغيير، وأنه مركز الثقل في حركة التاريخ، وجعله مدار الحركة التاريخية، وأوكل إليه مهمة التغيير والبناء، وكلفه بتحقيق الخلافة الإلهية على الأرض، وإنشاء العمران عليها"²⁰.

2.1.2. سنة النصر والتمكين:

التمكين من الناحية اللغوية يعني القدرة والاستطاعة، والتمكين "مصدر الفعل (مَكَّن) الذي يتكون من الحروف (م، ك، ن) يقال: (مكنه) الله من الشيء (تمكيناً) و(أمكنه) منه بمعنى، واستمكن الرجل من الشيء و(تمكن) منه، وفلان لا (يمكنه) النهوض أي لا يقدر عليه. ومن التمكين: المكنة تقول العرب: إن فلاناً لذو مكنة من السلطان أي تمكن، وتسمي العرب موضع الطير مَكْنَةً لتمكن الطير فيه، والمكانة عند العرب هي المنزل عند الملك"²¹.

وعليه، يتضح بجلاء أن التمكين في اللغة يعني: السلطان والملك، والقدرة والمكانة الاجتماعية المرموقة.

وقد أشار الله عزَّ وجلَّ لسنة التمكين في قوله: ﴿إنا مكنا له في الأرض وأتيناه من كل شيء سبباً﴾²²، وقال تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين﴾[سورة الأنعام، الآية: 6].

إن الله عزَّ وجلَّ مكن لأقوام كثيرة في الأرض، ومدَّهم بالقوة والسلطان، وأعطاهم من أسباب الخصب والنماء، لكن عصوا ربهم وتكبروا وتجبروا، فأخذهم بذنوبهم، وأهلكهم وكانوا من الغابرين دون أن يتركوا خلفهم خواء أو فراغا، ثم جاء بقوم من بعدهم.

ويمكن الله تعالى لعباده ولو كانوا عاصين له معرضين عنه، لكن من سنَّه تعالى أن يجزي الظالمين بظلمهم، ولو بعد حين، "وإنه لما يخدع الناس أن يروا الفاجر الطاغى، أو المستهتر الفاسد، أو الملحد الكافر، ممكنا في الأرض، غير مأخوذ من الله.. ولكن الناس إنما يستعجلون.. إنهم يرون أول الطريق أو وسطه، ولا يرون نهاية الطريق.. ونهاية الطريق لا تُرى إلا بعد أن تجيء! لا تُرى إلا في مصارع الغابرين بعد أن يصبحوا أحاديث.. والقرآن الكريم يوجه إلى هذه المصارع ليتنبه المخدوعون الذين لا يرون - في حياتهم الفردية القصيرة- نهاية الطريق، فيخدعهم ما يرون في حياتهم القصيرة. ويحسبونه نهاية الطريق"²³.

شروط التمكين وأسبابه:

إن التمكين في الأرض متعلق بشروط وأسباب، متى ما تحققت تحقق معها التمكين والأمن، والله عزَّ وجلَّ أشار لهذا في مواقع عدة من كتابه الكريم. قال الله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلن من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يَشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾[سورة النور، الآية: 55].

لقد عرضت الآية الكريمة لشروط التمكين، وهي: الإيمان بالله وإخلاص العبادة له، والقيام بالأعمال الصالحة، مع الحرص على فعل الخير بكل أنواعه، والوقوف أمام الشرك

والمشركين.. "إن من شروط التمكين لدين الله تعالى في الأرض تحقيق الإيمان الذي يريده الله وبينه رسوله صلى الله عليه وسلم وتجسد في حياة أصحابه"²⁴.

ولكي ينال العبد النصر من الله لا بد أن يأخذ بأسبابه، ومن هذه الأسباب: "الاستقامة في الحرص على توفير أسباب النصر المادية والمعنوية، واستجماع المقومات التي يستنزل المؤمنون بها نصر الله ولا شك أنهم إنما ينتصرون لملازماتهم للجادة المستقيمة -من جهة- ولبذلهم الجهد الواجب في تحصيل أسباب النصر -من جهة ثانية"²⁵. فالنصر يأتي بالاعتماد على أمرين أساسيين لا يمكن التفريق بينهما، الأول: التوكل على الله، واليقين بأن لا ناصر إلا هو، ولا غالب إلا هو. والثاني: الأخذ بأسباب النصر واتخاذ الوسائل المؤدية إليه. فمن الخطأ أن يهمل المسلم التوصل بالأسباب المادية الممكنة، من الصناعة، والتخطيط، والإدارة وغيرها، متوهما أن النصر يأتي بدونها، لأن تحقيق ذلك هو من مقتضيات الاستقامة على أمر الله.

3. تجليات سنة التداول والنصر والتمكين في قصة "الأبرص والأقرع والأعمى":

قبل الدخول في ذكر تجليات سنة التداول والنصر والتمكين في قصة "الأبرص والأقرع والأعمى"، يحسن بنا عرض ملخص للقصة:

لقد ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى، أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذّرني الناس. فمسحه، فذهب عنه قذره، ثم أعطي -إلى جانب ذلك- ناقة عشاء (حامل). فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: شعر حسن، فأعطي شعرا حسنا، وبقرة حاملا. وأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: أن يرد الله إلي بصري، فمسحه فرد الله إليه بصره، وأُعطي شاة والدا، فبارك الله لهم في مالهم، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم. ثم إنه أتى (الملك) الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين.. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن.. والمال، بغيرا أتبلّغ به سفري. فقال: الحقوق كثيرة. فقال: كأي أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرّك الناس، فقيرا فأعطاك الله؟.. فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر. فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا، وردّ عليه مثل ما رد هذا. فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذين. فقال: قد كنت أعمى فرد الله إليّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عزّ وجلّ فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبك.

1.3. تجليات سنة التداول في قصة "الأبرص والأقرع والأعمى":

لقد عمد النبي الكريم إلى عدم ذكر شخصيات القصة بأسمائها، ولعل العبرة من ذلك إيلاء الأهمية للأفعال الصادرة منها، فكل شخصية هي بمثابة تجربة إنسانية قابلة للتكرار، لذا فتتبع الأفعال التي تصدر منها ومعرفة العلائق القائمة بينها أهم من معرفة أسمائها ونسبها ومحيط عيشها.

ويظهر من القصة أن السنة البارزة فيها هي سنة الابتلاء، حيث ابتلى الله عزّ وجلّ ثلاثة من عباده، والابتلاء يكون بكثرة المال أو بنقصه، أو بالعافية أو السقم، أو بالسرور أو الحزن والغم.. كما قال الشاعر:

ثمانية تجري على المرء أبدا ❁ وكل امرئ لا بد يلقى الثمانية

سرور وحزن واجتماع وفرقة ❁ ويسر وعسر ثم سقم وعافية

لكن سنعمل في هذا المبحث على تجلية سنة التداول في قصة "الأبرص والأقرع والأعمى"، باعتبارها سنة ترتبط أشد الارتباط بالابتلاء، فسنة التداول تكون بالانقلاب من حال ووضع إلى حال ووضع آخر، أي من الوضع السيئ إلى الوضع الحسن أو العكس. ولتتبع سنة التداول في قصة "الأبرص والأقرع والأعمى" ارتأينا النظر إليها من زاويتين:

أ. استبدال جسدي:

تعتبر نعمة العافية الجسدية من أعظم النعم التي يسعى إليها كل إنسان، فيها يطيب العيش ويهنأ، ومن دونها يشقى ويضنك، ولو ملك جبالا من الذهب والفضة. لذا فلما سأل الملك المبعوث من الله تعالى الثلاثة رجال (الأبرص والأقرع والأعمى) عن أي شيء أحب إليهم؟ كان جوابهم متعلق برفع البلاء الذي حل بهم، فلم يطلبوا مالا ولا جاها. "...فأتى الأبرص

فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قدرني الناس²⁶. فكان أحب شيء إلى الأبرص أن يُعطى لونا حسنا وجلدا حسنا، فكانت السلامة البدنية والتمتع بالعافية أهم ما يحتاجه، لأن البرص كان داء شكل له حرجا داخل الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه، وذلك ظاهر من قوله: (ويذهب عني الذي قد قدرني الناس)، أي أنه -بسبب ما حل به- صار منبوذا مقدورا.

فحقق الله له ما طلب، وأبدل البرص باللون الحسن والوجه الحسن، فكانت سنة الاستبدال متجلية في استبدال حال السقم والعزلة الاجتماعية بحال العافية والصالح الاجتماعية. ونفس الشيء حصل مع الأقرع والأعمى، فالأول أُعطي شعرا حسنا، والثاني ردّ الله إليه بصره.

ب. استبدال مادي:

إن الدنيا لا تستقر على حال، فكم من فقير أغناه الله حتى صار ينعم في الرخاء، وكم من غني دارت عليه الدوائر فصار يستجدي لقمة العيش. فالدنيا لم تعد أحدا بالغنى، كما أنهالم تعدّه بالفقر.

إن شخوص قصتنا لم يطلبوا مالا، فكان أقصى متمنياتهم هو ذهاب البأس الذي لحقهم، لكن الله تعالى أراد ابتلاءهم بالزيادة في المال حتى يعلم المخلص منهم والجاحد، فمن أهداف الابتلاء تمحيص قلوب المؤمنين، قال تعالى: ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم وليلمح ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور﴾ [سورة آل عمران، الآية: 154]. "فالابتلاء يصقل قلب المؤمن، ويصلب عوده، وينقي الله عزّ وجلّ به ما في القلوب من الدغل والأمراض، ويختبر الله عزّ وجلّ به إيمان المؤمن"²⁷.

لقد أبدل الله حال الأبرص وأعطاه ناقة عشراء، "قال أي المال أحب إليك؟ قال: الإبل... فأعطي ناقة عشراء، فقال: بارك الله لك فيها"²⁸. وأبدل عزّ وجلّ حال الأقرع وأعطى بقرة حاملا، "قال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر. فأعطي بقرة حاملا، وقال: بارك الله لك فيها"²⁹. وأبد الله تعالى حال الأعمى فأعطى شاة والدا. وبارك الله لهم في مالهم حتى صار لكل واحد منهم مالا وفيرا، "فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم"³⁰.

إن تجليات سنة التداول في قصتنا تمظهرت بوضوح في استبدال حال الأبرص والأقرع والأعمى، فبعد السقم والضعف والعزلة والفقر جاءت السلامة والقوة والصلح الاجتماعي والغنى. والجدول الآتي يبين ذلك بوضوح:

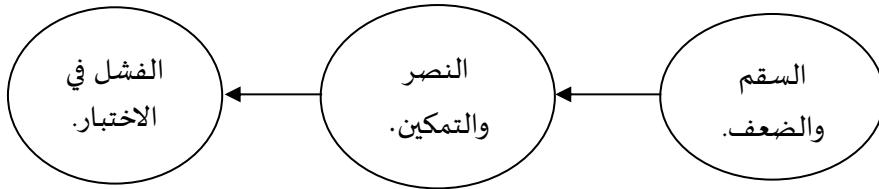
الجدول (1): جدول يوضح سنة الاستبدال عند الأبرص والأقرع والأعمى.

بعد الابتلاء	قبل الابتلاء	
- مظهر حسن ووجه جميل. - صلح واندماج اجتماعي. - ثراء وقوة وعيش كريم.	- مظهر بشع ووجه قبيح. - عزلة اجتماعية. - فقر وضعف وحاجة.	الأبرص
- شعر حسن ومظهر جميل. - صلح واندماج اجتماعي. - ثراء وعيش كريم.	- مظهر بشع. - عزلة اجتماعية. - فقر وضعف وحاجة.	الأقرع
- الابصار والمظهر الحسن. - صلح واندماج اجتماعي. - ثراء وعيش رغيد.	- انعدام الرؤية وشكل قبيح. - عزلة اجتماعية. - فقر وضعف وحاجة.	الأعمى

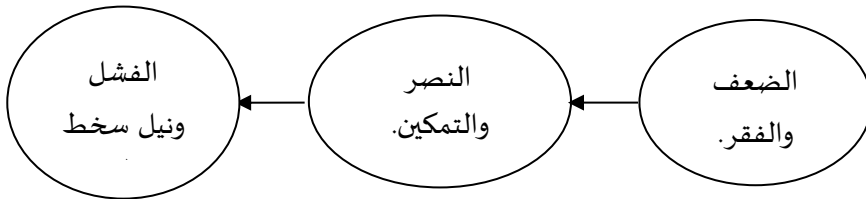
3.2. تجليات سنة النصر والتمكين في قصة "الأبرص والأقرع والأعمى":

إن التمكين في الأرض يلزمه الأخذ بالأسباب التي توصل إليه، كما يلزمه الثبات على الطريق المؤدية إليه. لقد مكن الله تعالى لعباده الأبرص والأقرع والأعمى، حيث أزال الحواجز التي كانت عائقا لهم لتحقيق ذلك. فأعطى الله تعالى الأبرص لونا حسنا، وهذا تمكين له، إذ تخلص من العائق الذي كان الناس يقذرونه بسببه، وصارت له مكانة اجتماعية محترمة، وكان ذلك بمثابة نصر على العزلة والخوف والضعف. كما مكن له بأن رزقه الله مالا وفيرا، إذ بارك له في ماله حتى صار له واد من الإبل. وتتجلى سنة التمكين أيضا في أن جعله الله

تعالى مقصدا للمحتاجين والضعفاء "ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، وقد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن.." ³¹. لكن الأبرص فشل في الاختبار، ونسب الفضل إليه ورد السائل "فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر!! فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت" ³². ويمكن تبليان مسار ابتلاء الأبرص على النحو الآتي:

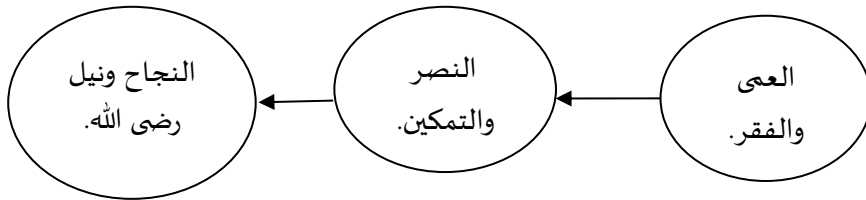


وأعطى الله تعالى الأقرع شعرا حسنا، ومكن له في الأرض إذ صار له واد من البقر. وأبدله الضعف بالقوة والحاجة والغنى، وجعله مقصدا للسائل والمحروم، "وأتى الأقرع في صورته وهيئته، فقال له مثل ما قال لهذا.." ³³، لكنه تكبر وتجبر وأنكر فضل الله تعالى، ونسي ما كان عليه من فقر وضعف، ولم يشكر الله على نعمه، فمن شكر النعم الجود بالمال على مستحقه، ومن الكفر بالنعمة البخل بالمال على مستحقه من أهل الفقر والحاجة. والشكل الآتي يبين بوضوح وضعية الأقرع:



ومكن الله تعالى للأعمى إذا أعاد له نعمة البصر بعدما كان يعيش في ظلام دائم، وزاده الله من أفضاله حتى صار له واد من الغنم، واختبر الله تعالى إيمانه بأن بعث له ملك على هيئته ليمحص قلبه ويعرف صدق إيمانه، "وأتى الأعمى في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك

بالذي رد عليك بصرک، شاة أتبلغ بها في سفري؟"³⁴. لقد أنعم الله تعالى على عبد الأعلى بأن جعله ملجأ للفقراء والمحتاجين وعابري السبيل، فشكر النعم ونسبها إلى صاحبها، وأعطى وتصدق مما رزقه الله تعالى، وانتصر على الطمع والجشع وحب المال.. "فقال: قد كنت أعى فرد الله بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتكم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبك"³⁵. والشكل الآتي يوضح مسار ابتلاء الأعلى:



الختامة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، فله الحمد كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه، حمدا كثيرا طيبا مباركا، على ما أنعم به من تمام هذا البحث، والصلاة على نبينا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

إن هذه الجولة الماتعة والمفيدة في قصص نبينا الكريم وفي سنن ربنا العظيم أوصلتنا إلى نتائج مهمة، نذكر أبرزها:

- القصص النبوي غني بالدروس والعبر، وعلى الدارسين العمل على استنباطها وبيانها للناس.
- إن لله تعالى القدرة على استبدال حال بحال آخر، فسنة التداول من سننه تعالى الجارية على جميع خلقه.
- الله تعالى يبتلي عباده ليعلم المؤمن من الكافر والصادق من الكاذب والشاكر من الجاحد.
- حال أغلب الناس إذا أغناهم الله ومكن لهم في الأرض أن ينسبوا الفضل لأنفسهم وينكروا فضل الله عليهم.
- إن عطاء الله تعالى ليس له حدود، ومن ينصره فلا غالب له.

ويمكن عرض التوصيات كالآتي:

- لابد من دراسة السنة النبوية عموماً والقصص النبوي على وجه الخصوص لاستخلاص الدروس والعبر التي تدل العبد على الطريق المستقيم.
- معرفة السنن الإلهية، الكونية منها والاجتماعية، تجعل العبد أكثر قرباً إلى خالقه، وأكثر فهماً لحقيقة الحياة .
- العلم بسنة التداول والنصر والتمكين يحرر الإنسان من عبودية العباد والخضوع لغير الله تعالى، ويمنحه الاستقلال والحرية، ويقوي يقينه بالله تعالى.
- شكر النعم واجب على العباد، ونسبة الفضل إلى الله تعالى، تقوي الإيمان وتزيد من الرزق.

قائمة المصادر والمراجع:

❁ القرآن الكريم.

- (1) ابن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد السابع، حرف الصاد، (د.ت).
- (2) أبو إسحاق الحويني الأثري، صحيح القصص النبوي، مكتبة الصحابة، جدة-الشرفية، ط1، 1411هـ.
- (3) إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، دار العلم للملايين، مج1، ط1، شتنبر 1987م.
- (4) توفيق بن أحمد الغلبزوري، السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم، <https://ebook.univeyes.com/91981/pdf>. تم التصفح بتاريخ (8 دجنبر 2020).
- (5) علي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم: أنواعه، شروطه وأسبابه، مراحل وأهدافه، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط5، 1430هـ-2009م.
- (6) سعيد بن مصطفى دياب، القصص النبوي دروس وعبر، شبكة الألوكة (د.ط)، 2018م.
- (7) صلاح عبد الفتاح الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن، دار القلم دمشق، ط5، (د.ت).
- (8) عبد العزيز بن ناصر الجليل، السنن الإلهية والوقفات التربوية في ضوء سورة الأنعام، القسطاوي للطباعة والتجليد، ط1، 1439هـ.
- (9) عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط1، 1993.
- (10) عمر سليمان عبد الله الأشقر، صحيح القصص النبوي، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط7، 2007م.

- 11) فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 1401 (هـ-1981م)، ج9.
- 12) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق "مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة" بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، باب حرف القاف، ط: الثامنة 1426 هـ-2005م.
- 13) محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المنار، ج4، ط2، 1366 هـ/1974م.
- 14) محمد سليمان عبد الله الأشقر، معجم علوم اللغة العربية، (عن الأئمة، ط1، 1995م).

الهوامش:

- 1 صلاح عبد الفتاح الخالدي، مع قصص السابقين في القرآن، دار القلم دمشق، ط5، ص 25-26.
- 2 ابن منظور الإفرقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، المجلد السابع، حرف الصاد، ص73.
- 3 مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، القاموس المحيط، (تحقيق "مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة" بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، باب حرف القاف، ط: الثامنة 1426 هـ-2005م)، ص 627-628.
- 4 محمد سليمان عبد الله الأشقر، معجم علوم اللغة العربية، (عن الأئمة، ط1، 1995)، ص 320.
- 5 عمر سليمان عبد الله الأشقر، صحيح القصص النبوي، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط7، 2007م، ص12.
- 6 إميل بديع يعقوب وميشال عاصي، المعجم المفصل في اللغة والأدب، (دار العلم للملايين، مج1، ط1، شتتبر 1987)، ص979.
- 7 سعيد بن مصطفى دياب، القصص النبوي دروس وعبر (شبكة الألوكة، 2018م)، ص8.
- 8 ابن منظور، لسان العرب، مادة سنن 395/6.
- 9 الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مادة سنن، ص1207.
- 10 فخر الدين الرازي، تفسير الفخر الرازي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1 1401 (هـ-1981م)، ج9، ص11.
- 11 محمد رشيد رضا، تفسير المنار، دار المنار، ط2 (1366 هـ/1974م)، ج4، ص140.
- 12 عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط1، 1993، ص13.
- 13 عبد الكريم زيدان، المرجع نفسه، ص5.
- 14 المرجع نفسه، ص7.
- 15 عبد العزيز بن ناصر الجليل، السنن الإلهية والوقفات التربوية في ضوء سورة الأنعام، القسطاوي للطباعة والتجليد، ط1، 1439هـ، ص48-49.
- 16 عبد الكريم زيدان، المرجع نفسه، ص12.
- 17 عبد العزيز بن ناصر الجليل، المرجع نفسه، ص49.
- 18 عبد العزيز بن ناصر الجليل، المرجع نفسه، ص50.

- 19 المرجع نفسه، ص53.
- 20 توفيق بن أحمد الغليزوري، السنن الكونية والاجتماعية في القرآن الكريم،
<https://ebook.univeyes.com/91981/pdf>.
- 21 اعلي محمد الصلابي، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم: أنواعه، شروطه وأسبابه، مراحل وأهدافه، دار المعرفة بيروت-لبنان، ط5، 1430-2009، ص17.
- 22 سورة الكهف، الآية84.
- 23 عبد العزيز بن ناصر الجليل، المرجع نفسه، ص67-68.
- 24 علي محمد الصلابي، المرجع نفسه، ص180.
- 25 المرجع نفسه، ص400.
- 26 أبو إسحاق الحويني الأثري، صحيح القصص النبوي، مكتبة الصحابة، جدة-الشرفية، ط1، 1411هـ، ص15.
- 27 عبد العزيز الجليل، المرجع نفسه، ص152.
- 28 الحويني، المرجع نفسه، ص15.
- 29 المرجع نفسه، ص15.
- 30 المرجع نفسه، ص15.
- 31 الحويني، المرجع نفسه ص15.
- 32 المرجع نفسه، ص16.
- 33 الحويني، المرجع نفسه، ص16.
- 34 المرجع نفسه، ص16.
- 35 المرجع نفسه، ص16.